أنطـوان شلحـت*

حول معايشة المحرقة والنكبة وصراع المواضـي!

«في مجرى الحديث قلتُ لأحد الصحافيّين إنَّ صحيفة «عل همشمار» (تابعة لحزب العمال الموحّد، مبام، الاشتراكي) نشرت في ذلك الصباح خبرًا بارزًا عن الاحتفالات بمرور عشرين سنة على إنشاء كيبوتس يسعور. وجاء في الخبر أنَّ الفرح بهذه المناسبة لم يكن له مثيل. وقلت للصحافي: يؤسفني أن أقول لك الحقيقة: أنا عاجز عن مشاركتك في فرحك. لماذا؟ لأنَّ هذا الفرح قائم على أطلالي. فإن كيبوتس «يسعور» ومستوطنة «أحيهود» مبنيان على أنقاض قريتي (البروة)... على أنقاض حارتي وبيتي. ذلك ينتمي إلى الماضي؟ ولكنه محفور في أعماقي»...

(محمود درويش في حديث صحافي أدلى به إلى يوسف الغازي. مجلة «الجديد»– حيفا، العدد ١١– كانون الأول ١٩٦٩)[1]

١- ولادة من رحم النكبة...

١-١: مفتتح- تفاصيل أوتوبيوغرافية

أبدأ بوقائع يغلب عليها الطابع الشخصيّ المحض:

ولدتُ سنة ١٩٥٦ في مدينة عكّا لأبٍ أتى إلى فلسطين في أوائل أربعينيات القرن العشرين الفائت من مدينة حلب في سورية، قاصدًا أن يقيم فيها فترة قصيرة –لأسباب خصوصية للغاية لا أرى أي داعٍ لكشفها، لا سيما أنها لا تخدم السياق العام لهذه المقالة– والعودة من ثمّ إلى وطنه الأصلي، ولأُمٍّ من أُسرةٍ عكّاوية كاحلًا عن كاحل، هي عائلة عزّام.

منذ تفتحَت أُولى براعم إدراكي الطفوليّ بدأت أتساءل، قبل أي شيء بيني وبين نفسي، عن سرّ عدم وجود أعمامٍ وأخوالٍ لي في مسقط رأسي، بل وفي بلدي كلّه، وفي حينه آثرت تلقّائيًّا اللجوء إلى

* مدير وحدتي الترجمة و «المشهد الإسرائيلي» في «مدار».

وفي حقيقة الأمر فإنَّ المحرقة كانت حاضرةً في «جلالها» الكامل، حتى من دون أن تكلّف نفسك عناء الالتفات إلى الوراء: في كتب التدريس، في الطقوس الرسمية التي شملت المدارس العربية، في صفارة الإنذار في مناسبة مراسم إحياء ذكراها. وبالنسبة إليّ شخصيًا كانت حاضرةً في مجرّد قيامي بتخطي العتبة الفاصلة بين البلدة القديمة (العربية) والبلدة الجديدة (اليهودية) في عكّا، والسير، مثلًا، في شارعين متاخمين للبلدة القديمة هما: «لوحامي هغيتاؤوت» و «مردخاي أنيليفيتش»، مع كل ما كان هذان الاسمان يحملان من دلالاتٍ وتداعياتٍ تُحيل حتمًا إلى المحرقة النازيّة

تفسيرٍ بسيطٍ بدا آنذاك أنه غير عصيّ على ذهن ولد صغير. كان فحوى ذلك التفسير أنَّ والدي كان ابنًا وحيدًا لجدي وجدتي، وقد ربط مصيره بوالدتي، التي كانت بدورها– نظرًا إلى وجود خالةٍ وحيدةٍ لي في المدينة– الابنة الصغرى من ابنتين لأسرة والدها ووالدتها.

لا أُخفي عليكم أنَّ هذا الأمر أبهظني كثيرًا، ذلك أنَّ وجود عائلة كبيرة كان بمنزلة سندٍ وظهرٍ في مجتمعٍ اعتبر التكافل الأسري سمةً مهمةً من سماته، إن لم تكن الأهَم على الإطلاق. وبمجرّد أنْ نما إلى علمي، في وقت لاحق، أنَّ لديّ أعمامًا وعمّات وأخوالًا انقطعت صلتنا بهم وصلتهم بنا إثر النكبة الفلسطينية سنة ١٩٤٨، فإنَّ هذه المعلومة تسبّبت لي بعذاب مُمّض، بل أكاد أقول إنها فاقمت شعور العزلة، الذي كان معشّشًا في داخلي منذ الصغر، إلاّ إنني ظللتُ أحاول مداواتـه بالمفارقة الكلبيّة التالية: «لو لم تحلّ النكبة، لربما كان أبي قد قفل عائدًا من حيث أتى؛ إلى سورية، قبل أن يغدو أبي، ولما كان تزوّج أمي التي أنجبتني بعد ولادة أُختي البكر بثلاثة أعوام. بكلماتٍ أُخرى، لولا النكبة، لما كنت سأُبصر نور هذا العالم. لذا أستطيع القول إنني وُلدت من رحم النكبة، كي لا أقول بفضلها».

إنَّ أكثر ما كان يحيلني إلى ذلك الشعور بالعزلة الداخلية أو التوحّد مع الذات أنَّ الحديث عن النكبة وتداعياتها الإنسانية السالفة بين أترابي الصغار عادة ما جرى آنذاك عبر همسٍ مكبوتٍ متأثّرٍ إلى أبعد حدٍّ من صمت الأهل، وذلك تحت وطأة خشيةٍ مزدوجة: أولًا: من أهل تحاشوا الحديث عنها لخوفهم من «الكلام في السياسة» عموماً. ثانيًا: من «حكومة بعبع» أدخـلوا في روعنا أنّ لها عينًا مثل عين الناطور التي لا يغفو لها جفن، تراقب كل شاردة وواردة، وتختبئ وراء الجدران وفي عُباب البحر، وحتى في حال وجودها على مقربةٍ منك فليس في وسعك ملاحظتها لأنها تعتمر «طاقية الإخفاء». وعلى الرغم من أنه في تلك السنوات– أوائل ستينيات القرن العشرين– لم يكن ثمة قانون إسرائيلي رسميّ يمنع تذكّر النكبة، كما هي الحال الآن (أصلًا لم تكن في ذلك الحين أي حاجة إلى «قوانين ديمقراطية»، إذ إنَّ الحكم العسكري فرض نظام طوارئ صارمًا)، فإنَّ ما كان «يضبط» وعينا الطفوليّ هو «قوانين» غير مكتوبة تقف في المرصاد لكل من يلتفت إلى الوراء، إلى ماضيه الأليم، وتتوعّده بالويل والثبور.

بيد أنَّ الالتفات إلى ألم الماضي وخزانته لم يكن محظورًا بتاتًا، ذلك أنَّ التفاتًا آخر نحو الزاوية، بل نحو المروحة التي تهبّ منها، مثلًا، المحرقة النازية لتملأ المشهد كلّه ضجيجًا وعويلًا ونواحًا ومعاناة كان مسموحًا، بل كان مطلوبًا، سواء أرغبت في ذلك أم لم ترغب.

وفي حقيقة الأمر فإنَّ المحرقة كانت حاضرةً في «جلالها» الكامل، حتى من دون أن تكلّف نفسك عناء الالتفات إلى الوراء: في كتب التدريس، في الطقوس الرسمية التي شملت المدارس العربية، في صفارة الإنذار في مناسبة مراسم إحياء ذكراها. وبالنسبة إليّ شخصيًا كانت حاضرةً في مجرّد قيامي بتخطي العتبة الفاصلة بين البلدة القديمة (العربية) والبلدة الجديدة (اليهودية) في عكّا، والسير، مثلًا، في شارعين متاخمين للبلدة القديمة هما: «لوحامي هغيتاؤوت» و «مردخاي أنيليفيتش»، مع كل ما كان هذان الاسمان يحملان من دلالاتٍ وتداعياتٍ تُحيل حتمًا إلى المحرقة النازيّة («لوحامي هغيتاؤوت» تعني المحاربين اليهود الذين قاتلوا في الغيتوات اليهوديّة، و «مردخاي أنيليفيتش» هو قائد التمرّد اليهودي في غيتو وارسو إبان فترة المحرقة النازية).

إنّ هذا الحضور لمعاناة المحرقة، شأنه شأن أي حضور مجرّد، كان رهن غيـاب وجع آخر، كما لو أنَّ قدر الماضي هو أنْ يطرد ماضيًا آخر كي يحلَّ محلّه. في ذلك الوقت لم تكن ثمة قنوات فضائية ولا شبكة إنترنت ولا وسائل إعلام تنقل على مدار الساعة

النكبة: فعل ماضٍ مستمر.

أدّق التفصيلات من تحت مسامات الجلود البشرية وغيرها، وفيه «غادرت» الكتب رفوف «المكتبة العربية»، الأمر الذي جعل أديبًا مثل خليل السكاكيني يخاطبها ملتاعًا: «الوداع يا مكتبتي! يا دار الحكمة، يا رواق الفلسفة، يا معهد العلم، يا ندوة الأدب! كم أحييت فيك الليالي الطوال أقرأ وأكتب، والليل ساجٍ والناس نيام... الوداع يا كتبي!... لست أدري ما حلّ بك بعد رحيلنا: انتُهبتِ، أُحرقتِ، أُنقِلْتِ مُعزّزةً مُكرّمةً إلى مكتبةٍ عامةٍ أو خاصة، أَصِرتِ إلى دكاكين البقالين يُلَفُّ بأوراقك البصل؟»، فلا غرو والحال هذه إنْ كان ما غاب، بالنسبة إليّ، هو ذلك «الترف» المُتأتّي عن الثرثرة في شأن ما حال دون معرفتي، أنا الصبيّ الصغير، أنَّ لديّ أعمامًا وعمّاتٍ وأخوالًا، الذي على بساطته كان من شأنه أنْ يُخفّف عني بعضًا من ذلك الشعور الداخلي بعزلةٍ وضائقةٍ أرختا بظلالهما على طفولتي، وعزّزهما خوفٌ دفينٌ من المجهول.

وعلى ذكر الحضور والغياب يحضرني، في هذا المقام، الشاعر محمود درويش، الذي وصف في شبابه تجربة «اللاجئ في وطنه» بالقول إنها تبعث على خطر القتل النفسي بصفاقةٍ أقسى من تجربة المنفى[٢]. ففي المنفى– قال– يتوفّر لديك الإحساس بالانتظار، وبأنّ المأساة مؤقّتة فتتنسَّم رائحة أمل. وتَحمُّل عذاب المنفى شيءٌ مبرَّر. والتصوّر للمنزل والحقل والجمال المنشود والسعادة القصيّة وغيرها أمر مشروع. أما التجربة الأُخرى، اللجوء في الوطن، فإنها أمر غير مبرّر وصعب الاستيعاب في حدود وعي الطفل والصبيّ. إنك تشعر بالغصّة والقهر حتى في أجمل أحلامك. وتكتسب ملامحك انعكاسات واقع، هي أقرب ما تكون إلى الرموز.

صحيح أنني لم أكن لاجئًا في وطني، فقد ولدت، كما أسلفت، في عكّا لأبٍ لاجئٍ من سورية، ولم يتجرّع كأس التشريد إبان النكبة– مع أنَّ المجاز يتيح إمكان اعتبار عدم تشريده من فلسطين تكريسًا لتشريده من حلب وحرمانه من حق العودة إلى وطنه الأصليّ– ولأُمٍّ هي من أبناء المدينة وبقيت مُقيمةً فيها... لكن، أين الوطن؟... ناهيك عن أنَّ المشاعر كلّها، التي تبعث على الدفء والأمان والطمأنينة والمتولدة من مجرّد الانتماء إلى أُسرةٍ غير منحصرةٍ في أبٍ وأُمٍّ وأُختٍ كبرى فقط، غادرت مع أسراب المشردين من عائلة أُمي الكبيرة وأصبحت لاجئة معهم ومع المقيمين أصلًا في وطنهم من عائلة أبي الكبيرة، الذين باعدت النكبة بيننا وبينهم، وأبقتني حبيس شعورٍ نفسيٍّ تعجز الكلمات عن توصيف إسقاطاته.

هكذا، ترسّخت في ذهني معادلة عجيبة مؤداها أنَّ غياب النكبة ناجم عن «فريضة» استحضار المحرقة، وأنَّ ذلك لم يكن عفو الخاطر، أو من قبيل المصادفة، وإنما جريًا على سنّة مألوفة و«أصيلة» فحواها أنَّ أي ماضٍ ربما يناقض ما عداه من مواضٍ.

وحتى عندما كانت المحرقة تغيب، فإنَّ ما كان يحضر هو «الاستقلال»، وتظل النكبة في المحصلة هي الغائبة.

هكذا، ترسّخت في ذهني معادلة عجيبة مؤداها أنَّ غياب النكبة ناجم عن «فريضة» استحضار المحرقة، وأنَّ ذلك لم يكن عفو الخاطر، أو من قبيل المصادفة، وإنما جريًا على سنّة مألوفة و«أصيلة» فحواها أنَّ أي ماضٍ ربما يناقض ما عداه من مواضٍ.

وحتى عندما كانت المحرقة تغيب، فإنَّ ما كان يحضر هو «الاستقلال»، وتظل النكبة في المحصلة هي الغائبة.

إن أكثر ما أذكره من فترة الصبا هو أنَّ «الاستقلال» شكَّل فرصة لـ «ترحيل» عرب عكّا طوعًا، بصورة مؤقّتة، من البلدة القديمة إلى البلدة الجديدة لـ «الفرجة» على «احتفالات اليهود». وكان الأولاد منهم يقضون عشية يوم «الاستقلال» بممارسة طقس ضرب رؤوس الصبايا اليهوديات بشواكيش البلاستيك التي تطلق صفيرًا ناعمًا، من دون أنْ تبدر عنهن عبارات الاحتقار أو التأنيب، التي كانت تتهاوى عليهم في مقاماتٍ أُخرى.

غير أنَّ هذه الحالة لم تدُم طويلًا، ذلك أنَّ الجداول الزمنية، في التحصيل الطبيعي، تكون خاضعةً أكثر شيء للرغبات البشرية المتفجرة أو المكبوتة أو المتضمنة. وهكذا اندلعت حرب حزيران ١٩٦٧ ، وفي أعقابها استؤنفت الصِّلات بالجزء الذي شُرّد من عائلة أمي واستقرّ في الضفة الغربية وقطاع غزة، ومع استئنافها سرعان ما أضحت النكبة من خلال آثارها الحاضرة لمسًا ورؤية تطغى على المشهد كلّه، فلم يعد في هذا المشهد حتى موطئ قدم للمحرقة أو لـ «الاستقلال»، اللذين كان حضورهما قبل ذلك أشبه بـ «القدر» الذي لا رادّ له.

في واقع الأمر، فإنَّ تلك الحرب حملت مدلولاتٍ جدليةً متناقضة: من جهةٍ هناك احتلالٌ إسرائيليٌّ أخضع قطاعاتٍ أُخرى من الشعب الفلسطيني (في الضفة الغربية وقطاع غزة) إلى سيطرته، ومن جهةٍ أُخرى أُعيد التحام هذه القطاعات مع الفلسطينيّين داخل «دولة اليهود». ولذا، منذ تلك الحرب صارت المحرقة تختفي شيئًا فشيئًا حتى أضحت أشبه بالبقايا، الحطام، بل أمسى ذكرها رديف مشاعرٍ تستدعي المصارحةُ القولَ إنَّ قوامها كان التبرّم أو عدم الاكتراث، كونها ماضيًا يُناقض ماضيّ المخصوص، أو أقلّه ليست جزءًا منه.

إذا استعرت تعابير غاستون باشلار، فإنَّ ذكرى النكبة الباقية من كل هذا السرد تحديدًا تبدو أقرب إلى «الشيء الخيالي المتناهي في الصغر». والخيال المتصل بالمتناهيات في الصغر هو خيال طبيعي، ينشأ في الأعمال كلها عند الحالمين الأصلاء. وإذا رغبنا في فهم جذوره السيكولوجية، علينا أنْ نستبعد فكرة التسلية.

وطبقًا للفلسفة الذاهبة إلى أنَّ الخيال هو الملكة الأساس، يمكن القول بأسلوب شوبنهاور إنَّ «العالم هو خيالي أنا»، أو بكلمات أُخرى، «العالم هو فكرتي أنا عنه»، وكلما صغّرتُ العالمَ بمهارةٍ أكبر امتلكتُه بكفاءةٍ أكثر.

١- ٢: بالانتقال إلى الواقع

وتشاء الصدفة، وربما ليست الصدفة وحدها، قبل كتابة هذه المقالة بفترة وجيزة، وبالتزامن مع صدور كتاب «بعيد عن السكّة: الشرقيون والمحرقة» للباحثة حنه يبلونكه[٣] ولدى استغراقي في استعادة ذكريات مرحلة الصبا، أنْ أُعايش عمليات انفجار مشاعر غضبٍ إسرائيليةٍ عارمةٍ على محاولة تجيير ماضي المحرقة النازية أيضًا لإقصاء ماضٍ يهوديٍّ آخر، وتحديدًا ماضي اليهود الشرقيّين (العرب)، وتجاهل عمليات الإقصاء والتمييز الذي عانوا منه، وما يزالون، بفعل تحمُّل اليهود الأشكناز (الغربيين) جلّ آلام المحرقة النازية. إنَّ تاريخ اليهود الأشكناز المُختَزل في المحرقة يعتبر، من وجهة نظر الحركة الصهيونية، أكثر أهميةً و«معياريةً» في سياق شرعنة إقامة «الوطن القومي اليهودي» في فلسطين، فيما تاريخ اليهود الشرقيّين من شأنه أن يُقوّض مثل هذه الشرعية أو أن يزعزع أُسسها، ولذا تمّ تجاهل هذا التاريخ.

وفي سياقٍ متصل، بتنا في الآونة الأخيرة نشهد مسارًا شبيهًا يتعلّق بـ «جوهر الحق اليهودي» في فلسطين، وذلك من ناحية كونه المبرّر الرئيس لشرعية إقامة دولة إسرائيل، ومن ناحية أولويته غير القابلة للتأويل على أي ظروف أُخرى وقفت وراء إقامتها من وجهة النظر السياسية التاريخية، وفي مقدمها قرار التقسيم الأممي من سنة ١٩٤٧، وما ساهمت المحرقة النازية فيه من تأثير في الاصطفاف الدولي المؤيد لذلك القرار.

وليس من العسير على المتابع لتاريخ إسرائيل والحركة الصهيونية ملاحظة أنَّ قدرًا كبيرًا من الجهود والتحركات السياسية الإسرائيلية الخارجية قد خُصّص، وما يزال، من أجل تحقيق غاية إضفاء شرعيةٍ دوليةٍ على الرواية التاريخية الصهيونية بشأن وقائع الصراع في فلسطين، وذلك منذ بدايته وصولًا إلى إقامة دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨، لا سيما مع تعاظم الاستئناف على تلك الرواية في العالم أجمع، وفي ظل تحرير رواياتٍ تاريخيةٍ مُضادّةٍ من شرك هيمنة كتابة التاريخ (الهستوريوغرافيا) الصهيونية داخل إسرائيل نفسها.

وإذا ركّزنا على الفترة الأخيرة، فإنَّ هذا الحكم ينطبق، مثلًا، على الغاية المتوخاة من تواتر مطلب الاعتراف بـ «يهودية» دولة إسرائيل، خلال الأعوام القليلة الفائتة، وتحديدًا منذ سنة ٢٠٠٣. وقد سبق للمفكر عزمي بشارة أنْ رأى، بكفاءةٍ لافتة، أنَّ القضية الأعمق في هذه السيرورة هي تطلّع إسرائيل إلى أنْ يتحوّل الاعتراف بها إلى اعتراف بالصهيونية وممارساتها الكولونيالية، وبالتالي يتحوّل الاعتراف العربي من اعترافٍ بحكم الأمر الواقع إلى اعترافٍ مبدئيٍّ بشرعيتها التاريخية، وهذا لا يعني إلاّ أنها كانت تاريخيًا على حقّ، والعرب على خطأ. وفيما عدا نفيه حق العودة للاجئين الفلسطينيّين، فإنَّ مثل هذا الاعتراف، إذا حدث، هو برأي بشارة «إنجاز سياسي معنوي ثقافي (للحركة الصهيونية ودولة إسرائيل) يعادل إقامة الدولة، لا في الواقع الملموس فحسب، بل في الثقافة والفكر والخطاب السياسي أيضًا».[٤]

وفي سياقٍ متصل، بتنا في الآونة الأخيرة نشهد مسارًا شبيهًا يتعلّق بـ «جوهر الحق اليهودي» في فلسطين، وذلك من ناحية كونه المبرّر الرئيس لشرعية إقامة دولة إسرائيل، ومن ناحية أولويته غير القابلة للتأويل على أي ظروف أُخرى وقفت وراء إقامتها من وجهة النظر السياسية التاريخية، وفي مقدمها قرار التقسيم الأممي من سنة ١٩٤٧، وما ساهمت المحرقة النازية فيه من تأثير في الاصطفاف الدولي المؤيد لذلك القرار.

ويمكن القول إنَّ الدافع المباشر لهذا المسار، ناهيك عن مواجهة الرواية التاريخية العربية والفلسطينية، كان إحدى الفقرات الواردة في الخطاب الذي ألقاه الرئيس الأميركي باراك أوباما في مستهل ولايته الأولى في جامعة القاهرة، يوم ٤ حزيران ٢٠٠٩، وقد انطوت تلك الفقرة على تلميحٍ صريحٍ إلى أنَّ قيام إسرائيل لا يعدو كونه أحد استحقاقات «العذابات اليهودية»، التي بلغت ذروتها في المحرقة النازية، وفقًا لما قاله.

وحرفيًا قال أوباما في هذه الفقرة ما يلي:

> ... (عليّ) الاعتراف بأنَّ رغبة اليهود في وجود وطنٍ خاصٍّ لهم هي رغبةٌ مُتأصلةٌ في تاريخٍ مأساويٍّ لا يمكن لأحدٍ نفيه. لقد تعرّض اليهود على مرّ القرون للاضطهاد، وتفاقمت أحوال معاداة السامية في وقوع المحرقة التي لم يسبق لها أي مثيل عبر التاريخ، وإنني سوف أقوم غدًا بزيارة معسكر بوخينفالد (في ألمانيا)، الذي كان جزءًا من شبكة معسكرات الموت التي استُخدمت لاسترقاق اليهود وتعذيبهم وقتلهم رميًا بالأسلحة النارية وتسميمًا بالغازات. لقد تمّ قتل ستة ملايين من اليهود، يعني أكثر من إجمالي عدد اليهود بين سكان إسرائيل اليوم. إنَّ نفي هذه الحقيقة هو أمرٌ لا أساس له وينم عن الجهل وعن بالغ الكراهية، كما أنَّ تهديد إسرائيل بتدميرها، أو تكرار الصور النمطية الحقيرة عن اليهود، هما أمران ظالمان للغاية، ولا يخدمان إلاَّ غرض استحضار تلك الأحداث الأكثر إيذاءً إلى أذهان الإسرائيليّين، وكذلك منع حلول السلام الذي يستحقه سكان هذه المنطقة.[٥]

يتبيّن، إذاً، أنَّ المحرقة لم تكن في عُرف الآباء المؤسّسين لإسرائيل ومكملي دربهم الآن أكثر من أداة أو «خشبة قفز»، بكل ما يعنيه ذلك من استغلالٍ معيبٍ لمعاناة ضحاياها وعدم اكتراثٍ لعذاباتها. ومن هنا، فإنَّ الطريق إلى إنكار معاناة ضحايا النكبة تغدو قصيرة جداً، إذا لم تتقاطع في المفترق نفسه.

وهذا ما انعكس في «وثيقة الاستقلال» الإسرائيلية عبر الكلمات التالية: «إن المحرقة التي حلّت بالشعب اليهودي في الآونة الأخيرة والتي ذُبح فيها الملايين من يهود أوروبا، قد عادت وأثبتت بالفعل ضرورة حلّ مشكلة الشعب اليهودي.

وقد أثار هذا القول الصريح لأوباما، على الفور، موجةً من الجدل في الخطاب السياسي الإسرائيلي. وسرعان ما انعكس ذلك في الخطاب الذي ألقاه رئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتنياهو في جامعة بار إيلان في ١٤ حزيران ٢٠٠٩، واعتُبر أنه، في الحدّ الأقصى، بمثابة ردّ على خطاب أوباما السالف.

ولدى العودة إلى ما قاله نتنياهو في هذا الخطاب نطالع ما يلي:

> إنَّ الرابط التاريخي بين الشعب اليهودي وأرض إسرائيل مستمر منذ أكثر من ٣٥٠٠ سنة. إنَّ مناطق يهودا والسامرة (الضفة الغربية)، حيث سار وتمشّى كلٌّ من أبراهام وإسحاق ويعقوب ودافيد وشلومو وإشعياء وإرمياء، ليست بالغريبة علينا، بل هي أرض الآباء والأجداد. إنَّ حق الشعب اليهودي في أنْ تكون له دولة في أرض إسرائيل لا ينبع من سلسلة الويلات التي ابتُلي بها. صحيح أنَّ اليهود تعرضوا خلال ٢٠٠٠ عام لمعاناة فظيعة تتمثّل بعمليات الترحيل والمذابح والافتراءات والقتل، ما بلغ ذروته في المحرقة النازية (الهولوكوست) التي لم يكن لها مثيل أو نظير في تاريخ الأمم والشعوب. هناك من يقول إنه لولا وقوع المحرقة لما كانت دولة إسرائيل ستقوم، لكنّني أقول إنه لو قامت دولة إسرائيل في موعدها، لما كانت المحرقة ستقع أصلًا. إنَّ المآسي الناتجة عن عجز الشعب اليهودي توضح سبب احتياج شعبنا لقوة بأسٍ سياديةٍ تتبع له. غير أنَّ حقّنا في إقامة دولتنا هنا في أرض إسرائيل مردّه حقيقة واحدة بسيطة: إنَّ هذه الأرض لهي وطن الشعب اليهودي، وهنا نشأت هويتنا، كما قال ذلك رئيس الحكومة الأول دافيد بن غوريون لدى إعلانه عن إقامة الدولة (اقتباس من الفقرة الاستهلالية لوثيقة استقلال دولة إسرائيل): «نشأ الشعب اليهودي في أرض إسرائيل، وفيها تمت صياغة شخصيته الروحانية والدينية والسياسية، وفيها عاش حياة مستقلة في دولةٍ ذات سيادة، وفيها أنتج ثرواته الثقافية الوطنية والإنسانية العامة، وأورث العالم أجمع سفر الأسفار الخالد».[٦]

لكن الجدل، في هذا الشأن، لم يتوقف عند ما قاله نتنياهو فحسب، بل وتُسمع أيضًا أصوات أُخرى تُنحِي باللائمة على الحكومة الإسرائيلية، وتتّهمها بالقصور في إقناع الإدارة الأميركية الأوبامية بأنَّ حق دولة إسرائيل في الوجود مستمَدٌّ أساسًا، بل وحصريًا، من حق اليهود في فلسطين، باعتبارها وطنهم القومي الأصلي. وقد بلغ الأمر بأحد القادة التاريخيّين في حزب الليكود، وهو وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق موشيه آرنس، أنْ عزا جوهر الخلافات الأخيرة بين إسرائيل والولايات المتحدة إلى عدم فهم أصحاب القرار في «البيت الأبيض» مركزية هذا الحق في مبادئ الصهيونية ومبرّرات إقامة إسرائيل، ونزوع هؤلاء إلى الاعتقاد أنَّ المحرقة النازية كانت العامل المركزي وراء إقامتها.[٧]

وربما تجدر الإشارة إلى أنَّ جانبًا من هذا الإصرار الإسرائيلي على انتزاع استبطانٍ أميركيٍّ بأنَّ فلسطين هي وطن الشعب اليهودي، وبأنَّ هذا الحق هو الحق الذي لا يُعلَى عليه بالنسبة إلى إسرائيل، راجعٌ إلى ما يمكن اعتباره سابقةً في تاريخ العلاقات الإسرائيلية– الأميركية، حدثت في إبان ولاية الإدارة الأميركية السابقة برئاسة جورج بوش الابن، وفحواها التماهي المُفرط مع المطالب الإسرائيلية المتعلقة بإضفاء الشرعية على الرواية التاريخية الصهيونية. وللعلم، فإنَّ بوش كان أول رئيس أميركي يشدّد، خلال خطابه في لقاء العقبة الدولي سنة ٢٠٠٣، على فكرة الاعتراف بإسرائيل دولةً يهودية، وذلك بمجرّد طرحها من طرف رئيس الحكومة الإسرائيلية الأسبق أريئيل شارون. كما أنه استهل الخطاب الذي ألقاه في الكنيست الإسرائيلي في

وفي المحصلة العامة، كانت إقامة إسرائيل فكرةً يُنظر إليها عمومًا، في ذلك الوقت، على أنها نتيجةٌ حتميةٌ لحربٍ خاضها اليهود، كما كان يُنظر إليها قبل أي شيءٍ آخر على أنها ملاذٌ للناجين من المحرقة ولأسرى معسكرات الاعتقال النازية. أما مسألة إعادة توطين مئات آلاف اللاجئين الفلسطينيّين ضحايا النكبة، فقد نظر إليها أساسًا باعتبارها مهمة إنسانية، وليس استراتيجية سياسية. وكان من المفترض، بموجب تلك النظرة، أنْ تتحمّل إسرائيل المسؤولية عن مستقبلهم ماديًا (فيزيائيًا) وماليًا فقط في حال إحلال السلام مع العرب.

١٥ أيار ٢٠٠٨، في مناسبة الذكرى الستين لإقامة إسرائيل، بالكلمات التالية: «لقد اجتمعنا لإحياء مناسبةٍ بالغة الأهمية. وكان دافيد بن غوريون قد أعلن قبل ستين عامًا في تل أبيب استقلال دولة إسرائيل القائم على أساس الحق الطبيعي للشعب اليهودي في تقرير مصيره. وما تلا هذه الخطوة كان أكثر من مجرّد إقامة دولةٍ جديدة، كان استيفاء وعدٍ قديم مُنح لأبراهام وموشيه ودافيد، بمعنى وطن قومي للشعب المُختار على أرض إسرائيل».[٨] وفي مجرّد هذه التعابير ما يتطابق مع ماهية ردّ نتنياهو على خطاب أوباما، حسبما ورد سابقًا.

يتبيّن، إذاً، أنَّ المحرقة لم تكن في عُرف الآباء المؤسّسين لإسرائيل ومكملي دربهم الآن أكثر من أداة أو «خشبة قفز»، بكل ما يعنيه ذلك من استغلالٍ معيبٍ لمعاناة ضحاياها وعدم اكتراثٍ لعذاباتها. ومن هنا، فإنَّ الطريق إلى إنكار معاناة ضحايا النكبة تغدو قصيرة جدًا، إذا لم تتقاطع في المفترق نفسه.

وهذا ما انعكس في «وثيقة الاستقلال» الإسرائيلية عبر الكلمات التالية: «إن المحرقة التي حلّت بالشعب اليهودي في الآونة الأخيرة والتي ذُبح فيها الملايين من يهود أوروبا، قد عادت وأثبتت بالفعل ضرورة حلّ مشكلة الشعب اليهودي المحروم الوطن والاستقلال من خلال استئناف قيام الدولة اليهودية في أرض إسرائيل لتفتح باب الوطن على مصراعيه من أجل كل يهودي».

ومهما تكن الأهداف التي تطلعت هذه الوثيقة إلى تحقيقها، فإنَّ ثمة غايتين متصلتين بالمحرقة تعتبران الأكثر وقعًا:

- أولًا: توكيد أنَّ «الحق اليهودي» في فلسطين لا ينبع من المحرقة مطلقًا.
- ثانيًا: عدم رهن إقامة إسرائيل بالمحرقة فقط، بل أساسًا بنزوع «اليهود في كل عصر إلى العودة إلى وطنهم القديم والاستيطان فيه. وفي العصور الأخيرة أخذ آلافٌ مؤلَّفةٌ منهم

خطاب اوباما التاريخي في جامعة القاهرة في العام ٢٠٠٩.

يعودون إلى بلادهم، من طلائع ولاجئين ومدافعين، فأحيوا القفار، وبعثوا لغتهم العبرية، وشيّدوا القرى والمدن، وأقاموا مجتمعًا آخذًا بالنمو ذا السيادة اقتصاديًا وثقافيًا، ينشد السلام، ويدافع عن نفسه، ويزف بركة التقدم إلى جميع سكان البلاد»، وبكلماتٍ أُخرى كانت إقامتها محصلة «العقل اليهودي» الخارق والمتفوّق.

مع ذلك، وحتى لو من باب عدم الاستخفاف بـ «العقل اليهوديّ»، فإنَّ إسرائيل مدينة في قيامها بالشيء الكثير للمحرقة ولنتائج الحرب العالمية الثانية.

إنَّ ما يجب أخذه في الاعتبار هو أنَّ أوروبا بعد تلك الحرب كانت رازحةً تحت وطأة عقدة الذنب جراء المحرقة النازية. وطوال عقدين من الزمان، عقب تلك الحرب، لم يعرف الدعم الأوروبي لإسرائيل حدودًا: سياسية، دبلوماسية، عسكرية (إضافة إلى السلاح النووي)، اقتصادية، تكنولوجية، علمية، وحتى على

صعيد الأعمال الخيرية. وكان هذا الدعم بمثابة التبرّع عمليًا لأعمال خيرية. كما كانت خطوط الهدنة، من سنة ١٩٤٩ ، تعتبر في معظم أوروبا وفي أميركا شيئًا مقدسًا، يشبه التقسيم في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية إلى شرق وغرب بين القوى الغربية والاتحاد السوفييتي السابق. حتى جوزيف ستالين، وخلال سنواته الأخيرة، التي اعتبرها الصهيونيون وغيرهم موبوءة بـ «العداء للسامية»، لم يقترح انسحاب إسرائيل من خطوط هدنة ١٩٤٩ إلى ما أعطته خطة التقسيم الدولية الأصلية (من سنة ١٩٤٧) إلى اليهود. كما أنَّ خلفاء ستالين في الكرملين لم يطلبوا ذلك، مع أنَّ الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين كانتا عصر تفكّك الاستعمار، وستالين والذين أتوا بعده امتدحوا كل حركة مضادة للاستعمار تقريبًا. غير أنَّ هؤلاء انتقدوا إسرائيل باعتبارها صنيعة الرأسمالية الأميركية، لا لكونها قوة استعمارية. والعديد من الدول المستقلة حديثًا والشعوب التي كانت مستعمرة سابقًا فضلت إقامة علاقات وثيقة مع إسرائيل، على الرغم من إدانتها الحكومات الاستعمارية الأُخرى، مثل تلك الموجودة في كينيا أو جنوب أفريقيا أو الجزائر. وحتى اليسار الفرنسي والإيطالي كان يفتقد أي خطاب مُعادٍ لإسرائيل مثل الذي أصبح رائجًا بعد سنة ١٩٦٧ ، إثر حرب الخامس من حزيران في تلك السنة.

وفي المحصلة العامة، كانت إقامة إسرائيل فكرةً يُنظر إليها عمومًا، في ذلك الوقت، على أنها نتيجةٌ حتميةٌ لحرب خاضها اليهود، كما كان يُنظر إليها قبل أي شيء آخر على أنها ملاذٌ للناجين من المحرقة ولأسرى معسكرات الاعتقال النازية. أما مسألة إعادة توطين مئات آلاف اللاجئين الفلسطينيّين ضحايا النكبة، فقد نظر إليها أساسًا باعتبارها مهمة إنسانية، وليس استراتيجية سياسية. وكان من المفترض، بموجب تلك النظرة، أنْ تتحمّل إسرائيل المسؤولية عن مستقبلهم ماديًا (فيزيائيًا) وماليًا فقط في حال إحلال السلام مع العرب. كما كان الغرب يتوقع من الدول العربية المجاورة أنْ تساند أعمال استيعاب اللاجئين الفلسطينيّين داخلها، فالكثيرون في الغرب اعتبروا هذه الدول مسؤولة جزئيًا عن نتائج حرب شنتها سنة ١٩٤٨ لإفشال قرار الأمم المتحدة القاضي بتقسيم البلد.

وقد حثّ الأميركيون والأوروبيون، وحتى السوفييت، العرب على التوصل إلى سلام مع إسرائيل على أساس الواقع الراهن على الأرض بعد حرب ١٩٤٨ ، وفي مجلس الأمن الدولي ضرب مندوب الولايات المتحدة وورن أوستين الطاولة بيده قائلًا إنَّ الإدارة الأميركية ترى أنَّ الوقت ملائمٌ جدًا لليهود والعرب من أجل الجلوس معًا وحل خلافاتهم بـ «روح مسيحية حقيقية».[٩]

٢- أيام مع المحرقة...

تحت وطأة المشاعر الطفولية السالفة كلّها، وما انضاف عليها لاحقًا من معارف تُعتبر علميةً من ناحية ماهيتها، قضيت أيامًا كثيرةً مع المحرقة خلال عملي ناقدًا ومترجمًا، لم أتمكن خلالها من أن أتحرّر من جوهر هذه المقاربة، ولعل أبرزها تلك الأيام التي صرفتها خلال سنة ٢٠٠٠ في ترجمة مسرحية «غيتو» للكاتب المسرحي يهوشواع سوبول إلى اللغة العربية،[١٠] فضلًا عن أيام أُخرى صرفتها خلال سنتي ٢٠٠٩– ٢٠١٠ في مشروع مشترك لترجمة كتاب «لننتصر على هتلر» لأبراهام بورغ، ومن ثمَّ في مراجعة الترجمة الناجزة وتقديمها إلى القارئ العربي.[١١]

وفيما يلي بعض أبرز الفقرات من المقدمتين اللتين كتبتهما لهذين الكتابين، باعتبارهما استمرارًا منطقيًا للشهادة الخاصة المتعلّقة بمعايشة المحرقة وعلاقتها الجدلية بالنكبة، علمًا أنَّ «مسرح الكاميري»، وهو المسرح البلدي لمدينة تل أبيب، أعاد مطلع سنة ٢٠١٠ إنتاج مسرحية «غيتو» ضمن قالبٍ فنيٍّ جديد، وكانت هذه الإعادة بمثابة فرصةٍ أكّد خلالها نقاد المسرح الإسرائيليون، في معظمهم، أنَّ «غيتو» تعتبر منذ بدأ عرضها سنة ١٩٨٤ وحتى الآن «العمل المسرحي الإسرائيلي الأكثر شهرةً، سواء داخل إسرائيل أو في أرجاء العالم الواسع».

إنَّ الغاية من ذلك هي أنْ أعرض، خصوصًا على مسامع القراء اليهود، جزءًا ولو يسيرًا من مسعى فلسطيني وعربي دؤوب للاستئناس بـ «المنظار» الإسرائيلي إزاء أكثر موضوعات الصراع إشكالية، توخيًا لهدف أبعد هو أنْ يتم تعريض الجانب الإسرائيلي لهذه التجربة، علّه يقوم بمحاكاتها فتستأنس نصوصه بـ «المنظار» الفلسطيني الباحث عن الحقيقة بنكهته التي لا تُغني عنها أي نكهة أُخرى مهما يبلغ مدى تعاطفها مع القضية الفلسطينية.

٢- ١: الغيتو/ الدولة!

تعالج «غيتو» معركة البقاء، التي خاضها الإنسان اليهودي استنادًا إلى روحه المعنوية وموروثه الثقافيّ، والدور الأخلاقي المنوط بالفنّ والإبداع عامة في خضم عالم يفتقر إلى الأخلاق والقيم ويفتقد احترام حياة الإنسان وكرامته، وذلك من خلال إعادة نسج قصةٍ حقيقيةٍ عن فرقةٍ مسرحيةٍ يهوديةٍ حاولت ممارسة نشاطها الفني في غيتو فيلنوس (Vilnius عاصمة ليتوانيا) إبان اندلاع الحرب العالمية الثانية وما انطوت عليه من فظائع النازية وأهوالها.

يتكئ مؤلف المسرحية يهوشواع سوبول على مرموزاتٍ وأنساقٍ ثقافيةٍ يهودية، كانت تشفّ عنها تجربة الغيتو، كي يستحضر جانبًا من الماضي اليهودي المرتبط بذاكرة المحرقة.

لا تكمن أهمية عمل سوبول بالنسبة إلى مقالتنا هذه في محاولته زعزعة مقولة «البطولة» التي تحلّى بها يهود أُوروبا في تعاملهم مع المحرقة، وإنما تكمن أهميته في ثلاث مقولات، إحداها موقفه الذي يخلص عمليًا إلى التقليل من أهمية المحرقة في صوغ الهوية الإسرائيلية والقول بصورةٍ غير مباشرةٍ إنَّ هذه «البطولة» المفترضة ما هي إلاَّ أداةٌ استخدمها قادة إسرائيل منذ نشوئها لأغراضٍ سياسية.

وهو يحاول، كما في مسرحيات أُخرى له رجع من خلالها إلى الماضي اليهودي في أزمان مغايرة، أن يدفع هذا الجانب نحو موقعٍ مركزيٍّ في مساءلاتٍ تبدو مستحقة في قراءته تتعلق بالأوضاع الراهنة لليهود، بشكل عام، واليهود في إسرائيل، بشكل خاص. ومع أنّ استغراق سوبول كان مُنصَبًّا أكثر من أي شيءٍ آخر في الاستعادة شبه الوقائعية لماضي الغيتو في فيلنوس، فإنَّ الحوار ذاته وحركة انتقال الشخصيات واستنطاقها بين الأزمنة المختلفة يُنبئان، على نحوٍ تلميحيٍّ، بإصراره على المحافظة على احتمال الرابطة القوية بين الماضي والحاضر. ويشي الاطلاع على أعمال سوبول المسرحية، لا سيما في هذا المحور بالذات، بأنه يُشهر إصراره السالف، ولو بصورة إيحائية، من أجل تعزيز فكرة «الاستمرارية التاريخية» في وعي المشاهد، باعتبار الحاضر غير مقطوع عن الماضي. وليس هذا وحسب، وإنما أيضًا من أجل استحضار أكثر جوانب هذا الماضي إثارةً للجدل والتفكير واستقطار ما يتعيّن وضعه في صلب مواجهة الذات لذاتها تحت مجهر الحاضر.

لا تكمن أهمية عمل سوبول بالنسبة إلى مقالتنا هذه في محاولته زعزعة مقولة «البطولة» التي تحلّى بها يهود أُوروبا في تعاملهم مع المحرقة، وإنما تكمن أهميته في ثلاث مقولات، إحداها موقفه الذي يخلص عمليًا إلى التقليل من أهمية المحرقة في صوغ الهوية الإسرائيلية والقول بصورةٍ غير مباشرةٍ إنَّ هذه «البطولة» المفترضة ما هي إلاَّ أداةٌ استخدمها قادة إسرائيل منذ نشوئها لأغراضٍ سياسية. ثانيًا: إنَّ اليهود ليسوا أسمى أخلاقيًا من بقية بني البشر، ويمكنهم التعاطي بإيجابية مع «قوى الشر» لتحقيق أهدافهم الجماعية والفردية، إضافةً إلى أنهم ليسوا مُحصّنين من ارتكاب فظائع بحق مجموعاتٍ أُخرى كالسكّان الفلسطينيّين أصحاب البلد واليهود الشرقيّين. أما المكمن الثالث لأهمية هذا العمل، فهو في مواقف الكاتب نفسه إزاء بعض قضايا الصراع لا في عمله هذا.

في معرض مقابلةٍ أجراها معه نجله (يهلي سوبول) في العام ٢٠١٠.[١٢] وحين سأله حول موقفه من حق عودة اللاجئين الفلسطينيّين، قال سوبول:

> إنَّ جميع حيثيات الأحداث السابقة التي طرأت في العالم تشهد على أنَّ الحروب انتهت باقتلاع ملايين الناس. على سبيل المثال، اقتُلع في أثناء الحرب العالمية الثانية ملايين الألمان من بيوتهم من مقاطعة سيليزيا الواقعة في سوديت لاند التشيكية، ومن رومانيا وطُردوا من هناك. لا يطالب أي ألماني عاقل اليوم بالعودة إلى هذه الأماكن. كذلك الأمر بخصوصنا– أنا وأنت– ابن وحفيد لنازحين هربوا أو طُردوا.

وهو يضيف قائلًا:

> بداية هناك مسؤولية أخلاقية بالتأكيد على مَنْ يعلن الحرب. لست مستعدًا أن يحيلوا المسؤولية عن حرب ١٩٤٨ إلى الجمهور اليهودي. أنا أعرف أن الجمهور اليهودي وافق على قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة (سنة ١٩٤٧) وكان مستعدًا لتبنّيه، وأن العرب هم من أعلنوا الحرب التي هدفت إلى تدمير الوجود اليهودي في أرض إسرائيل، ولا يمكن لأحدٍ أن يقنعني بشيء آخر.

ومن نافل القول إنَّ هذين الادعاءين هما الأكثر شيوعًا بين الإسرائيليّين الليبراليّين والعلمانيّين بخصوص تحايلهم على الحقوق الأخلاقية الخاصّة بحق الفلسطينيّين في العودة إلى ديارهم.

وحين سئل سوبول: «لقد كانت هناك قرى اختفت من منطقة القرية التي ترعرعت فيها في تل موند. كيف بدا لك هذا الأمر

كصبي؟ هل بدا لك الأمر طبيعيًا؟ كيف كانت العلاقة معهم قبل الحرب؟»، فإنه اختزل جوابه برسم تفاصيل مشهدٍ استشراقيٍّ بامتياز: «لقد كانت لتل موند علاقة مع قرية واحدة، قرية فلسطينية باسم تيكلي (؟!)، فقد كان تجّار يحضرون الخضراوات في كل صباح على حميرهم. إنني أتذكر بعضهم. لقد كانوا يشترون منهم البطيخ والشمام».

وردًا على السؤال: «هل تتذكّر أي حديث وأنت لا تزال صغيرًا يشير إلى ماذا يعني تعبير عرب؟»، أجاب سوبول بما يلي:

«لم تكن هناك حاجة إلى أن يشرحوا لي ذلك. فقد كانوا (العرب) يجلسون عندنا في البيت ويتناولون وجبة الإفطار. كانت جدتي تدعو تاجر الزبالة من الطيرة وتعد له العجَّة (...) وفي أحد أيام أيار ١٩٤٨ صباحًا، قبل بدء العمليات العدائية، سمعت من يقولون: سكّان تيكلي يتركون قريتهم. خرجنا نحن الأولاد إلى الشارع الرئيسي... وما زلت أتذكر صورة الشاحنات العربية المحمّلة بالفراش والأدوات البيتية تقطع الطريق عبر القرية. جاء مختار تيكلي محمود (اسمه) لزيارة والدي قبل تركه، واعتاد والدي أن يقول إنه سأل محمود: «لماذا تتركون؟»، فأجابه محمود بأنها مشيئة القيادة العربية العليا، فقد أمرتنا بترك المكان حالًا إلى حين انتهاء الأمور، إذ سيعودون. بصورةٍ واضحة، لم يكن في تل موند تهجير». وبشأن السؤال: «ماذا فعلوا هناك بعد ذلك؟»، أجاب سوبول: «حرثوا القرية بعد الحرب، وغرسوا هناك البساتين».

ليس عسيرًا أنْ نشير إلى التماثل الفاضح مع الرواية الإسرائيلية بشأن النكبة وحيثياتها من تشريد وقتل وعلاقات اجتماعية بين الفلسطينيّين والمستوطنين اليهود في البلد. والأهم من ذلك أنَّ نظرة سوبول إلى النكبة من شأنها أن تفصح عن العديد من مواقفه السياسية الحالية الخاصّة بالصراع الفلسطيني– الإسرائيلي. فإنَّ اعتماده المنظور «الوجودي»، كما يصطلح عليه هو نفسه، لا يزعزع شعار «البطولة اليهودية»، فحسب بل إنه يسعى إلى التخفيف من هول النكبة وما اعتراها من مآسٍ إنسانية. وكأننا أمام محاولةٍ تكتيكيةٍ من طرف الكاتب كي يخفف عن نفسه أثقال أحداث مفجعة، يهودية وفلسطينية على حدٍّ سواء، وبالتالي التنصّل من المسؤولية التاريخية الملقاة عليه فردًا وجماعةً ليتسنّى له الاستمرار في العيش الرغد من دون مُنغصات، مع علمه أنَّ حياته هذه تقوم وتتغذّى على مآسي الآخرين. بكلماتٍ أُخرى، وخلافًا لموقفه إزاء المحرقة، فإنَّ نفي سوبول المنظور «الوجودي» بالنسبة إلى النكبة وإيثاره التمسك بتسويغات كولونيالية وصهيونية هما ثمرة سعيه للتسليم بصورةٍ مُعينةٍ مع ماضي النكبة بغية التهرّب من مواجهته.

سبق لأحد النقاد في إسرائيل أن قال عن سوبول إنه إذا لم يكن من أكثر المسرحيّين الإسرائيليّين راديكالية، فإنه من أكثرهم خصوبةً في الإنتاج. وقد عُرضت مسرحياته في أنحاء مختلفة من العالم، وهو من مواليد سنة ١٩٣٩ في إحدى القرى الزراعية القريبة من تل أبيب، وحاصل على الدرجة الجامعية العليا في الفلسفة من جامعة السوربون في فرنسا. ومن أبرز مسرحياته: «نفسية يهودي» (١٩٨٢) و«فلسطينية» (١٩٨٥) و«أعراض القدس» (١٩٨٧). أمّا مسرحية «غيتـو»، فهي أول عمل في ثلاثية مسرحية كتبها بين السنوات ١٩٨٤– ١٩٩٠، وأثارت في حينه جدلًا واسعًا، كان في مركزه، من جملة أشياء أُخرى، جرأة الكاتب غير المسبوقة في الإضاءة الصارخة لأحد المحرمات في الإنتاج الأدبي الإسرائيلي، الذي تعاطى مع موضوع المحرقة، وهو التعاون الأرعن لليهود وبعض قادتهم مع النازيّين في فترة الحرب العالمية الثانية. وتعدّ هذه الجرأة بمثابة مقترب من حقيقة أن بعض القادة اليهود اندمجوا بكيفيةٍ ما في النظام النازي إلى درجة التعاون معه، أو بكلماتٍ أُخرى تصرفوا كما لو أنهم يتعاونون معه «من أجل الحفاظ على الحياة». غير أن الأهم من ذلك هو أن سوبول يجعل النجاة من المحرقة، على المستوى النفساني، رهن تعاونٍ ما تمّ مع النازيّين، وهو ما يعتبر «بذرة إثـم» متأصلة في الممارسة الوجودية لليهود، بشكلٍ عام، واليهود في إسرائيل، بشكل خاص. ويتناول ذلك على خلفية تؤالف بين النزوع الوجوديّ على الصعيد الفلسفي، والنزوع الفرديّ على الصعيد السياسيّ.

تشمل المسرحية إشارات بليغة إلى «دولة اليهود» باعتبارها اتساعًا أو توسيعًا لـ «الغيتـو»، الذي تحكمت فيه أنماط سلوكية ليست مختلفةً عن الأنماط التي تتحكم بالدولة، كما لو أنها جاءت امتدادًا طبيعيًا له، واتسمت بالخصائص الفردية كلها لمن كانوا على رأس تجربة السلطة في الغيتو، فالمشهد الأول يبدأ في بيت تل أبيبي، فيما ينتهي المشهد الأخير في البيت نفسه، وهو بيتٌ يتهدّم مع الذكريات أول الأمر، ويحاول استعادة بنائه في آخر الأمر. وفي الغيتو تنوّعٌ بشريٌّ كما التنوّع في الدولة، يبدأ فكريًا من المتدينين وينتهي بأقصى اليسار. أمّا اجتماعيًا، ففيه الأنماط كلها، بدءًا بالقاتل واللصّ والمتعاون مع الاحتلال وانتهاء بالمُتاجر بأي شيء، بدءًا بالمخلص لذاته وانتهاء بالمخلص لقضيةٍ يؤمن بها.

تجري أحداث المسرحية في الغيتو من خلال تقنية الاستعادة من الذاكرة، وبواسطة تقديم مشاهد فنية كانت تقوم بها فرقة جرى تأسيسها من فنانين كانت لهم شهرةٌ خارج الغيتو، ويهدف هذا التأسيس إلى التحايل في سبيل الحفاظ على الحياة في مواجهة المجازر، وهو تحايلٌ ينضوي تحته كلُّ سلوكٍ في الغيتو، بدءًا برئاسته

إن سوبول نفسه، كما تشفّ عن ذلك مسرحية «غيتو» وكذلك مواقفه السياسية، ليس مناهضًا للصهيونية، ولا يعارض الكيان السياسي الذي أنشأته في فلسطين، وإنما يُبدي تحفظه إزاء الكينونة داخل هذا الكيان، ويجعله، على مستوى ما، كيانًا «يحمل بذرة التعاون مع قوى الشرّ»، وتبعًا لذلك فإنه تحوّل من ضحيةٍ إلى جلاد، لا يُضحي بفردٍ أو أفراد، وإنما بشعبٍ آخر.

ومروراً بشرطته اليهودية وانتهاء بالمشاريع الصناعية والتجارية التي تُقام هناك. وفي نطاق الحفاظ على الحياة اليهودية تجري أحداث قاسية، يضحي خلالها اليهودي بيهود، ويتعاون اليهودي مع النازي، ويغلّب اليهودي مصلحته على حياة اليهود. يجري ذلك كله في إطارٍ من القناعة شبه التامة، ويتولى صاحب كل موقف الدفاع عنه، مدعيًا أنه هو وحده «القومي» المكافح من أجل اليهودية، حتى وإن تلطخت يداه بالدم اليهوديّ. ولا تصادف هناك حدوداً لما يمكن أن يرتكبه اليهوديّ كي يحقق اختياره، ابتداءً بحفلات المجون وانتهاءً باللجوء إلى «العدو» أو تسليم رفاقه إلى الذبح.

تقوم حكاية المسرحية على محاولة قيادة الغيتو الحفاظ على بقاء أكبر عدد ممكن من سكانه بمنأى عن المجازر في انتظار التحرير. وتخضع هذه المحاولة لشروط النازي بشأن جدوى الناجين. ومن أجل اختيار الذين ينجون، تدور حواراتٌ قاسيةٌ تكون محصلتها أشدّ قسوة، هي التضحية بنسبةٍ كي تنجو نسبةٌ أُخرى، وتغدو هذه التضحية أشبه بصراع بقاء على الصعيد الفردي في بعض الأحيان. أمّا السلاح الوحيد المستخدم في ذلك، فإنه يتمثّل في التطييف أو الخداع: خداع الموت، خداع النازي، خداع الرفاق، غير أن المحصلة في نهاية المطاف تصل إلى التصفية التامة، إلى درجة أنّ النصّ يملك احتمالات أن يفسَّر على أنه يُحمّل «الشخصية اليهودية» وزر المجازر التي حدثت لها، وبالتالي فإنه يمكن أن يشير إلى «غريزة الموت» الكامنة في طريق المستقبل. وإذا كان الكاتب قد استند إلى أحداث واقعية في المسرحية، فإنّ إضافات خياله وفكره كانت كبيرة بحيث استطاعت أن تطرح أفكاراً لها أبعادٌ واسعة.

إن الذي يقوم بسرد الحكاية من ألفها إلى يائها هو الراوي، الشخص الوحيد الذي ينجو من المجزرة بعد أن أُصيب بعاهةٍ مُستديمة، وعندما كان جزءًا من الفرقة المسرحية في الغيتو، فإنّ

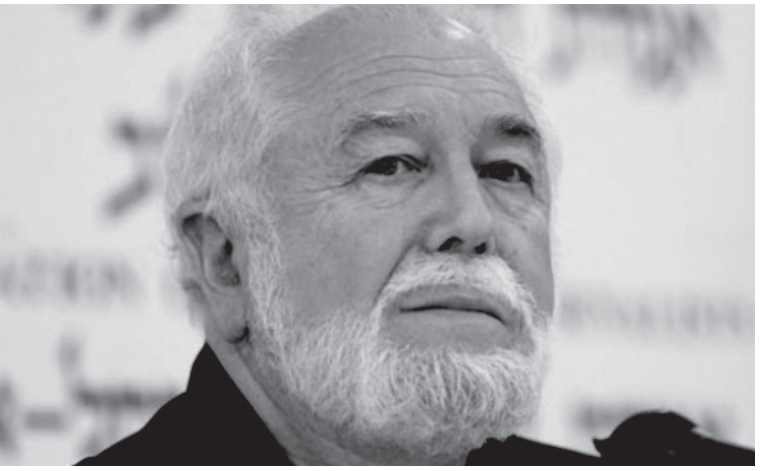

يهوشواع سوبول.

عمله تحدّد في تحريك دمية تميّزت بجرأة لا متناهية، ونطقت بما حال خوفه دون النطق به، غير أنه حين يسرد الحكاية لا يبدو متردّدًا قطّ في إماطة اللثام عن العوامل التي أدّت إلى التصفية الشاملة للفرقة وقيادة الغيتو، وهي في المجمل العام عوامل تحيل إلى النفس اليهودية ذاتها، والتي لم ينعدم أشخاص في الغيتو نفسه أجادوا بدورهم في توصيفها، والمقصود النفس التي تنتج متعاونين مع الغستابو، مستعدين لضرب اليهود بساديّة، وإقامة «حفلات حمراء» مع الضباط الألمان، ما يوحي بالنهم إلى السلطة وإلى «الكراهية الذاتية اليهودية» التي تؤجّج هذا النهم.

انتقلت هذه الصورة، خلال المسرحية، إلى «أرض إسرائيل»، إلى فلسطين، حيث كانت ثمة زعامات يهودية، على غرار رئيس الغيتو ورئيس شرطته، لا ترفض تلقي السلطة من أيّ يدٍ تمنحها إياها. وداخل هذه الصورة يخلع سوبول على الصهيونية صفاتٍ خاصة، لعل أبرزها صفة العدوانية (يقول أحد أبطال المسرحية: «لقد أسّسوا

ذلك أنّ سنة ٢٠٠٩ شهدت عروضًا لمسرحيتين إسرائيليتين جديدتين تتساجلان مع هذه الذاكرة نفسها: المسرحية الأولى باسم «إندا»، وهي من تأليف الكاتب هيلل ميتلبونكت، وموضوعها محاكمة أدولف أيخمان (أحد الضباط النازيّين، الذي قامت إسرائيل سنة ١٩٦٠ باختطافه ومحاكمته وإعدامه في أراضيها، وكان ذلك الحدث الأبرز الذي أعاد فتح ملف المحرقة). والمسرحية الثانية باسم «تفاهة الحبّ»، وهي من تأليف الكاتبة سافيون ليبرخت، وموضوعها قصة الحب بين الفيلسوف الألماني مارتين هايدغر، الذي اتّهم بإقامة علاقاتٍ مع النازية، والباحثة اليهودية حنه أرندت، التي غطّت محاكمة أيخمان وأتت تحليلاتها بمثابة صدمةٍ للقيادة الصهيونية، واتهمت بالقول إنَّ اليهود قادوا أنفسهم إلى المحرقة بأنفسهم.

(يقصد اليهود في فلسطين) كتائب ليلية، وهم لا يعملون فقط وفقًا لمبدأ العين بالعين، فيردون على الضربة بضربةٍ مماثلة، وإنما بدأوا في سنة ١٩٣٦ – ١٩٣٧ يسبقون أعداءهم ويخرجون إلى مهاجمتهم في داخل قراهم، حتى قبل أن يهاجمهم هؤلاء»). وثمة أيضًا صفة «الاستعلاء القومي»، الذي أوجده اليهود، «ما جعل نظام الكينونة بينهم وبين سائر الشعوب يختل».

لكنّ أبلغ ما تكشف المسرحية عنه هو أن «البطولة» اليهودية المرافقة للمحرقة مثل ظلها العالي، التي لا تنفكّ الدعاية الإسرائيلية تتحدّث عنها بإطلاقية تامة (يوم إحياء ذكرى الضحايا اليهود للمحرقة النازية يسمى في إسرائيل «يوم المحرقة والبطولة»)، لا تعدو كونها أُكذوبة. ويجد سوبول في الغيتو قدرًا كبيرًا من مؤونة مسوّغات تفنيد هذه الأكذوبة، فقد وُجد داخله من يتعاون مع النازيّ، سواء أكان هذا التعاون «مبررًا» بذريعة «تسليم جزء كي يَسلَم جزءٌ آخر»، أو لم يكن كذلك. فمثلًا رئيس الغيتو مختلف عن صاحب المشروع الاقتصادي، الذي يدرّ الأرباح، ذلك أنّ الأول يرغب في توسيع مصنع إصلاح الملابس كي يستوعب مزيدًا من العمال، وبذا فإنه يحفظ حياتهم، في حين أن الثاني ينظر إلى الموضوع فقط من زاوية الجدوى الاقتصادية والمنفعة المالية. وعندما يحتدم الخلاف بين الاثنين، يرافق ذلك تهديد بتقديم شكوى إلى الضابط النازي، الذي يسمع ويتدخل لينهي الأمر كله بمجزرة مروّعة. وإذا كان هذا المشهد يقدّم أبرز تعاون يهودي مع النازي، على الصعيد الفردي، فإن هناك في المسرحية مشاهد أكثر تقززًا، يتم في أحدها مثلًا إعلان ما يشبه المناقصة حول عدد اليهود الذين سيجري قتلهم في غيتو آخر من أجل «ضم» الناجين إلى غيتو فيلنوس.

إن سوبول نفسه، كما تشفّ عن ذلك مسرحية «غيتو» وكذلك مواقفه السياسية، ليس مناهضًا للصهيونية، ولا يعارض الكيان السياسي الذي أنشأته في فلسطين، وإنما يُبدي تحفظه إزاء الكينونة داخل هذا الكيان، ويجعله، على مستوى ما، كيانًا «يحمل بذرة التعاون مع قوى الشرّ»، وتبعًا لذلك فإنه تحوّل من ضحيةٍ إلى جلاد، لا يُضحي بفردٍ أو أفراد، وإنما بشعبٍ آخر.

ومنذ الحرب على لبنان (في صيف ٢٠٠٦) ومن ثمّ الحرب على غزة (في أواخر ٢٠٠٨) فإن سوبول يتبنى مواقف أكثر صهيونية من المواقف التي تبنّاها في السابق (في ذروة الحرب على لبنان كتب مقالًا اعتبر فيه أنها حرب ضرورية).[١٣] وفي سنة ٢٠٠٩ وبمناسبة بلوغه سن السبعين أُجريت معه بضع مقابلات صحافية، كانت إحداها مقابلة مطولة أدلى بها إلى نجلـه، وحمّل فيها الجانب العربي أوزار النكبة سنة ١٩٤٨، جراء قيامه بشنّ حربٍ كانت تهدف إلى «تصفية الوجود اليهودي في أرض إسرائيل»، على حدّ تعبيره. غير أنه، برغم ذلك، منخرطٌ حتى العنق في مسارٍ يميّز كثيرين من النُخب الإسرائيلية الثقافية، قوامه النبش عن آثـام ارتكبت في الماضي، ومن شأنها تشويه الحاضر، ومحاولة ضخّ مداليلها إلى الوعي الإسرائيلي العام، لمصلحة «إنقاذ» مشروع الكيان الإسرائيلي من العدم. ويكشف هذا المسار، عادةً، مزيداً من الزوايا السوداء في ذلك الماضي، التي خضعت لمنظومة المسكوت عنه. وفي هذه المسرحية يعقد أيضًا مقارنةً بين سيروراتٍ تحكمت بالغيتو وسيروراتٍ تتحكم بالدولة، لا سيما إثر إقامة الجدار الفاصل، الذي حوّل «أرض إسرائيل»/ فلسطين، في قراءته، إلى غيتو (أ) للإسرائيليّين وغيتو (ب) للفلسطينيّين، بحيث لم يعد واضحًا من هو الذي يحاصر الآخر؟.

وعندما تساجل سوبول مع ذاكرة المحرقة أول مرة، بواسطة مسرحية «غيتـو»، وكان ذلك سنة ١٩٨٤، كما سبق أنْ أشرنا، فإنه كان كمن يحرث في أرضٍ بكر، إلاَّ أنَّ الوضع لم يعد كذلك في آخر العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، ذلك أنّ سنة ٢٠٠٩ شهدت عروضًا

يتصدَّى بورغ، بكفاءةٍ لافتة، على مدار صفحات الكتاب كافة، لتفكيك «شيفرة» الواقع الإسرائيلي في صيرورته الحالية، وفي سياق ذلك فإنه ينتقد، أساسًا، كون المحرقة تحدّد شكل التصرفات والتفكير والاستخلاص، وفي آخر المطاف تصوغ هوية إسرائيل برمَّتها. ويقول إنه يتم استغلال ذكرى الضحايا كمبرِّر للسياسة الإسرائيلية عامة، ولسياسة التهجير والاحتلال والقمع في فلسطين خاصة.

لمسرحيتين إسرائيليتين جديدتين تتساجلان مع هذه الذاكرة نفسها: المسرحية الأولى باسم «إندا»، وهي من تأليف الكاتب هيلل ميتلبونكت، وموضوعها محاكمة أدولف أيخمان (أحد الضباط النازيّين، الذي قامت إسرائيل سنة ١٩٦٠ باختطافه ومحاكمته وإعدامه في أراضيها، وكان ذلك الحدث الأبرز الذي أعاد فتح ملف المحرقة). والمسرحية الثانية باسم «تفاهة الحبّ»، وهي من تأليف الكاتبة سافيون ليبرخت، وموضوعها قصة الحب بين الفيلسوف الألماني مارتين هايدغر، الذي اتّهم بإقامة علاقاتٍ مع النازية، والباحثة اليهودية حنه أرندت، التي غطّت محاكمة أيخمان وأتت تحليلاتها بمثابة صدمةٍ للقيادة الصهيونية، واتهمت بالقول إنَّ اليهود قادوا أنفسهم إلى المحرقة بأنفسهم. وتتوقّف المسرحيتان عند ملفٍّ شائك، من زاويةٍ مخصوصةٍ قلَّما تحظى بتطرُّقٍ نقديٍّ في النصوص الإسرائيلية، هي زاوية تجيير المحرقة للأهداف الصهيونية، التي جاءت محاكمة أيخمان بمنزلة انعكاسٍ صافٍ وصريحٍ لها، على أكثر من صعيد.

٢-٢: «الإسرائيلية» المشوبة بـ «المحرقة»!

يعرض أبراهام بورغ، الرئيس الأسبق للكنيست الإسرائيلي والوكالة اليهودية وأحد أبرز القادة السابقين في حزب العمل، في كتاب «لننتصر على هتلر»، مشروعه الفكريّ الخاص. وهو يهدف بواسطته إلى شقّ طريق يمكن للذي يسلكها أنْ يبلغ، في نهاية المطاف، ما أسماه «الإسرائيلية المشتهاة، النظيفة» التي تنطوي على خصيصة التوازن الروحي، وذلك عبر النأي عن شوائب كثيرة علقت بها، ومنها على وجه التحديد «صهيونية بنيامين زئيف هرتسل» التي تُقصي الآخر وتتجاهله، ووطأة المحرقة النازية، وهذه الأخيرة تشكّل برأيه أُسّ المبررات للاستئثار بصورة الضحية، ولعدم استفظاع تقمّص دور الجلاد باعتبار أنَّ محارق الآخرين كانت وستظلّ مطلقًا أدنى مرتبة من العذاب اليهودي.

إنَّ ما يقف في صلب هذا المشروع، ضمن جملة أشياء أخرى، هو التخلّي عمّا يسمّيه بـ «اليهودية الوراثية»، إلى ناحية الاندماج، من جهةٍ أُولى، في يهودية القيم السامية، ويهودية المصير المشترك، ومن جهةٍ أُخرى في هوية القيم واللغة والبرنامج المشترك للبشرية جمعاء. وبناء عليه– كما يضيف– فإنه «سيكون بيننا من هم أبناء إبراهيم وسارة، لكنّ الجميع هم أبناء آدم وحواء أصلًا. وخلافًا لمعتقدات حاخامين وشعراء كثيرين، مثل الشاعر الأندلسي أَبي الحسن يهودا اللّاوي، وأسلافه وخلفائه، التي تقول إنَّ أغيارًا كهؤلاء لن يكونوا متساوين معنا، سنتبنى، كسياسةٍ قوميةٍ عامةٍ، موقف الرامبام، الذي كُتب في مذكرةٍ إلى عوفاديا الغريب، مُجايله: لا فرق مطلقًا بيننا وبينك في أي شيء... ولا تقلل من شأن نفسك. إنْ كنّا نحن نتبع إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فأنت أيضًا تتبع مَنْ خلَقَ الكونَ وسيَّرَهُ».

تكمن أهمية كتاب بورغ الحالي في محاولته مجابهة المحرقة النازية (الماضي) والخروج بالتالي، خلافًا لنظرة سوبول، باستنتاجات تتعلّق بواقع الحال في المجتمع الإسرائيلي وتعامله مع القضية الفلسطينية بصورةٍ تتناقض مع استخلاصات العديد من القادة الإسرائيليّين.

ولعل في تغيير اسم الكتاب من «هتلر انتصر»، عند البدء بكتابته، إلى «لننتصر على هتلر» بعد الانتهاء من كتابته، وهو الاسم الذي ظهر به، وفق ما يوضح الكاتب، ما يوسِّع دائرة الضوء حول تلك الطريق التي قطعها على مدار سنوات تأليفه. فقد كان بورغ يعتقد أنَّ هتلر انتصر بمجرّد أنْ أصبح وجود المحرقة النازية طاغيًا على كل شيء في كينونة إسرائيل الراهنة، إلى درجة الشعور بأنَّ الصدمة النفسية التي أحدثتها المحرقة هي أشبه بمرضٍ عُضالٍ يستحيل معالجته أو الشفاء منه. لكنّ الأمور أخذت أبعادًا جديدة خلال الكتابة، و«تولَّد لديّ تفاؤل حذر من خلال الرماد وأعمدة الدخان. ومثلما هو متّبع في التراث اليهودي، حيث يستبدلون اسم المريض أملًا بشفائه، فقد استبدلت اسم كتابي».

يتصدَّى بورغ، بكفاءةٍ لافتة، على مدار صفحات الكتاب كافة، لتفكيك «شيفرة» الواقع الإسرائيلي في صيرورته الحالية، وفي سياق ذلك فإنه ينتقد، أساسًا، كون المحرقة تحدِّد شكل التصرفات والتفكير والاستخلاص، وفي آخر المطاف تصوغ هوية إسرائيل برمَّتها. ويقول إنه يتم استغلال ذكرى الضحايا كمبرِّر للسياسة الإسرائيلية عامة، ولسياسة التهجير والاحتلال والقمع في فلسطين خاصة. ويكتب أنَّ «كلَّ شيء مسموح، لأنَّنا عانينا من المحرقة، ولا يجوز لأحد أنْ يقول لنا ما يجب علينا فعله». ويضيف أنَّ «كلَّ شيء يبدو لنا خطرًا، كما أنَّ تطوّرنا الطبيعي بصفتنا شعبًا جديدًا ومجتمعًا جديدًا ودولة حديثة قد توقَّف».

ومن خلال الإشارة إلى الماضي المتمركز حول المحرقة يتم في الوقت الحاضر الحفاظ على الشعور بالتهديد المستمر، على الرغم من أنه لم يعد ثمة ما يبرِّره منذ فترة طويلة. وحتى لو أنَّ سياسة الرئيس الإيراني (السابق) محمود أحمدي نجاد تُمثِّل مشكلةً خطرةً في الوقت الحالي، مثلما يقول بورغ، فإنَّ المقارنة بينها وبين ما حدث سنة ١٩٣٨، التي يتم الالتجاء إليها من طرف بعض السياسيّين، مثل زعيم حزب الليكود بنيامين نتنياهو، تشكِّل في واقع الأمر إساءةً غير مشروعة إلى ذكرى المحرقة. وهو يتساءل: هل كان لدى اليهود سنة ١٩٣٨ على سبيل المثال أسلحة نووية وواحد من أقوى الجيوش في المنطقة، بالإضافة إلى دعمهم من طرف قوى العالم الكبرى؟

كما يرى أنَّ إسرائيل اليوم موجودةٌ حيث كانت ألمانيا في نهاية فترة جمهورية فايمار؛ أي دولة قوموية وذات نزعة عسكرية وأسيرة صدمة قومية تحول دون التوجّه من غير تحفّظاتٍ نحو المستقبل. ويرى كذلك أنَّ ما كانت تمثِّله معاهدة فرساي في ألمانيا، يتجلّى في المحرقة في إسرائيل. فمثلما تم هناك يتم هنا أيضًا؛ تحديد الهوية الخاصة بمعزلٍ عن الآخرين.

بدايةً يُقرّ بورغ أنَّ الاحتلال الإسرائيلي في حزيران ١٩٦٧ كان نقطة تحوّلٍ سلبيةٍ في تاريخ إسرائيل (ويكرّر في أكثر من موقع مقولة الفيلسوف يشعياهو ليبوفيتش بأن شمل مليون ونصف مليون عربي في تخوم الحكم اليهودي «يعني تقويض الجوهر الإنساني واليهودي للدولة وتدمير مبناها الاجتماعي– الاشتراكي... ويعني خراب الشعب اليهودي وإفساد الإنسان في إسرائيل»)، لكنه يؤكّد أنَّ المشكلة لم تكن كامنة في الاحتلال وحده، وإنما أساسًا في تزامنه مع فتح أبواب الماضي اليهودي، ولا سيما باب المحرقة النازية. ومباشرة بعد حرب ١٩٦٧، التي تُسمَّى إسرائيليًا «حرب الأيام الستة»، ظهر أحد أكبر الحمائميّين في إسرائيل في ذلك الوقت، وهو وزير الخارجية الأسطوري آبا إيبان على المنصة الدولية، ورسَّخ بكل قوةٍ الادعاء بأنه لا يجوز لإسرائيل العودة إلى حدود ما قبل تلك الحرب. وقد سكّ حينئذٍ تعبيرًا لغويًا لم يتوقف استخدامه حتى هذا اليوم، حيث عرّف حدود الدولة التي كانت حتى الحرب إياها، أي حدود الخط الأخضر من سنة ١٩٤٩، على أنها «حدود أوشفيتز». وأدّى تعريفه هذا، من خلال تداعيات بالغة التعبير، إلى ربط تلك الحرب العجيبة والإعجازية بفترةٍ مظلمة انتهت قبل ذلك بأقل من رُبع قرن. وكان كمن يضع صورةً إيجابيةً لضوءٍ إسرائيليٍّ ساطع مقابل ظلمةٍ كبيرةٍ ومرعبة أحاطت بالعالم ويهوده الذين ضاقت بهم السبل في ظل عدم وجود دولة لهم («ستة أيام من الخلاص في مقابل اثنتي عشرة سنة من العبودية»). وبذا فقد منح الشرعية لأسوأ ادعاءات اليمين. وبعد أيام وسنوات، وأثناء ذروة إجلاء المحتلّين اليهود من قطاع غزة وغوش قطيف (ضمن ما عرف باسم «خطة الانفصال» سنة ٢٠٠٥)، ارتبط الادعاء مع مجمل دائرة منطقية كاملة: إذا كانت حدود ما قبل حزيران ١٩٦٧ هي فعلًا حدود أوشفيتز، فهذا يعني أن ثمة منطقًا – أو على الأقل منطقًا عاطفيًا – في تعليق شارات المحرقة من جانب الذين يتم إجلاؤهم. وكأنهم يقولون: أزالت حرب حزيران عنّا حدود الغيتو الافتراضي، غيتو «إسرائيلوشفيتز»، والآن يريدون إدخالنا مجدّدًا إلى الغيتو. وهكذا تحوّل إجلاء سياسي، وتجميع منطقي متجدّد لانتشار الاحتلال الإسرائيلي، في إطار مُحكم ودقيق أكثر، إلى نقطة صدمة نفسية أخرى على امتداد تداعيات ما بعد المحرقة.

ويضيف أنه على الرغم من كونه ابنًا لأحد اليهود الألمان (وهو الوزير الإسرائيلي الأسبق يوسف بورغ، الذي كان أحد أبرز زعماء الصهيونية– الدينية وحزبها المفدال)، ويفتقد كبقية الأشكناز وملايين الفلسطينيّين إلى أعمام وأخوال وأجداد وجدّات، فإنه لم ينكشف على أهوال المحرقة إلاَّ إثر «محاكمة آيخمان» وحرب ١٩٦٧، ومنذ ذلك الوقت بدأ يشعر، مثل أزيز مزعج لا يتوقف للحظة، بالحضور الدائم للمحرقة في حياته. وكلما فكّر في ذلك أكثر، فإنه لا يتمكّن من التهرّب من الاستنتاج أنَّ المحرقة أضحت ركيزة ثيولوجية في الهوية اليهودية المعاصرة، وهي تُعدّ إحدى أكبر مشكلات الهوية لدى الشعب اليهودي المعاصر.

من ناحية أُخرى، كما يتابع، فإنَّ ثمة شيئًا غريبًا يحدث في حياته، فـ «منذ سنوات عديدة أعيش حياة مزدوجة. معظم زمني– من حيث الكم– هو زمان إسرائيلي، وهناك جزء نوعي وكبير من زمني يجري خارج البلد. وتم تخصيص سنوات كثيرة من حياتي لبناء شبكة اتصالات وعلاقات وتأثيرات بين إسرائيل والمحيط الدولي، بين إسرائيل وأمم العالم، بين إسرائيل والشتات اليهودي. وفي البلاد أعيش لغة واحدة: لغة التوتر والصدمات. لغة الأعداء والأضداد. وفي خارج البلد أعيش بلغةٍ أُخرى: لغة الاتصالات والجسور، لغة التفاهم والاعتذار

والتنازل. في إسرائيل أعيش واقع «إنْ جاء ليقتلك فبادر لقتله»، التي معناها العملي هو: إما أنْ أنتصر وأنتَ تموت، وإما أنْ أموت أنا. وفي بلاد البحر تعلّمت رؤية أخرى مختلفة تمامًا في جوهرها: رؤية الـ win win، التي تعني: أريد أنْ أنتصر، لكنك لست ملزمًا بأنْ تخسر وتعاني بسبب انتصاري». وكلّما تمضي السنوات، فإنَّ الهوة بين اللغتين تتعمّق وتتّسع. ولذا فقد ازدادت قناعته أنَّ لغة بلده– ليست اللغة العبرية المحكية، وإنما الإسرائيلية– تستند إلى أُسس وقواعد مغلوطة من أساسها. فإسرائيل تعمّق وتخلّد الفلسفة الضدّية، وهي أنَّ كل العالم ضدّها. «وينتابني أحيانًا شعور غير لطيف فحواه أنَّ إسرائيل لا تعرف كيف تبقى موجودةً من دون نزاع ومواجهات. فإسرائيل في عالم من الهدوء والسكينة، ودولة اليهود من دون ثورات حماسية وحزن وهستيريا متواترة، لن تبقى، ببساطة، موجودة. وفي ميدان الحرب اللانهائية، بات واضحًا بالنسبة لي أكثر فأكثر أنَّ المُولِّد الرئيس لذهنية المواجهة، وللصهيونية الكارثية، هو المحرقة. في المقابل، حدث لنا في العالم الواسع شيءٌ عميقٌ ومفاجئ. فلأول مرة منذ سنوات ودهور، ولأول مرة في التاريخ، يعيش معظم الشعب اليهودي خارج دائرة التهديد الجسدي المباشر على حياته. وباستثناء بضعة آلاف من اليهود في إيران والمغرب، وبضع مئات في سورية، وشخص وحيد في أفغانستان – لم يعد هناك يهود يعيشون خارج الهميسبيرا (أي نصف الكرة الأرضية) الديمقراطية. وخلال أقل من مئة وخمسين سنة تغيرت بصورة كبيرة للغاية شروط معيشة الشعب اليهودي. (...) هناك تجمعات ديموغرافية لم تكن موجودة حتى قبل وقت غير بعيد، أو على الأقل لم تكن موجودة بعظمتها الحالية، على غرار دولة إسرائيل ويهود الولايات المتحدة. أوروبا خلت تقريبًا بالكامل بسبب الإبادة والهجرة. لكن يتوجب الانتباه إلى ما يلي: ليست المحرقة وأعمال القتل هي التي قضت على أوروبا اليهودية. فعمليات إفراغ أوروبا من اليهود بدأت قبل تفعيل مشعلي المحارق. (...) على ضوء هذا كلّه يبرز التناقض الصهيوني. فلقد قامت دولة إسرائيل كملجأ آمن للشعب اليهودي، وهي اليوم أكثر مكان غير آمن لمجموعة يهودية كبيرة تعيش فيه» على الرغم من امتلاكها أسلحةً نووية.

ويصل إلى بيت القصيد عندما يؤكّد أنَّ العلاقات الخفية بين إسرائيل والعالم اليهودي مثيرة ومهمة، ورغم ذلك يجب الاعتراف بأنَّ لإسرائيل القائمة ونمط حياتها مساهمة معينة في تصاعد الكراهية المتجدّدة إزاء اليهود في العالم. صحيح أنَّ المسؤولية عن العداء للسامية لا تقع عليها، لكن مجرد وجود إسرائيل كشوكة في عيون أولئك الذين لا يحبونها منذ البداية يستلزم إعادة بحث وتدقيق أعمق من التفاهات السطحية مثل «العالم كلّه ضدّنا أصلًا»، و«غير اليهودي يكره اليهود، حتى بعد أربعين عامًا في الأرض».

وخلاصة القول: إنَّ الأزمة أصبحت هنا، «وعندما أدقق في مركبات الهوية ومركبات أزمة الهوية ألاحظ فقط وجود خيط جوهري واحد يمر طولًا وعرضًا بكل ما ذكر وبغيره أيضًا: الظلّ الثقيل، غير المحتمل، للمحرقة وأهوالها. فكل شيءٍ ناجمٌ عنها. وكل شيءٍ يعود إليها. إلى درجة أنني أريد أحيانًا تغيير النص التوراتي وقراءة التوراة في مطلع السنة هكذا: في البدء كانت المحرقة، وعمّت الفوضى الأرض. إنَّ المحرقة حاضرةٌ في حياتنا أكثر من الله... ويكشف الإصغاء إلى الخطاب الإسرائيلي واليهودي، وربما حتى العالمي، اليوم، أنَّ المحرقة تحوّلت لتصبح التجربة المؤسّسة لوعينا القومي، وربما حتى للغرب كلّه، إذ يتحدث الجنرالات عن مفهوم الأمن الإسرائيلي كوسيلة مضادة لمنع «محرقة جديدة». ويستخدمها سياسيون كادعاءٍ مركزيٍّ لتبرير كل انحرافاتهم الأخلاقية. والأشخاص العاديون يمرون يوميًا بتجربة متكرّرة للصدمة النفسية، والصحف تحفل باستمرار بسيل من الأخبار والمقالات والعبارات عن المحرقة ويتطرقون إليها وإلى حضورها في حياتنا. لقد وصلت الأمور إلى درجة أنَّ دراسةً تمّ إعدادها قبل بضع سنوات بين طلاب موضوع التربية في إحدى كلّيات تأهيل المعلمين المرموقة في تل أبيب، كشفت عن نتيجة مذهلة: أكثر من تسعين بالمئة من المشاركين في استطلاع شملته الدراسة أفادوا بأنَّ المحرقة بالنسبة لهم هي التجربة الأهم في تاريخ الشعب اليهودي. أكثر من خلق العالم، ومن الخروج من مصر، ومن نزول التوراة، ومن خراب الهيكلين، ومن التشتّت، ومن المسيانية، ومن النتاج الثقافي المذهل، ومن ولادة الصهيونية، ومن قيام دولة إسرائيل أو من حرب ١٩٦٧. وهؤلاء هم المربّون في إسرائيل».

إنَّ نتيجة ذلك كلّه هي أنَّ إسرائيل اليوم أصبحت مجتمعًا أقل استقلالية مما كانت عليه لحظة قيامها، وهي دولة محرقة أكثر مما كانت عليه بعد ثلاث سنوات من التحرير وفتح أبواب مصانع الموت التي أقامها النازيون وأعوانهم. وقليلة هي الادعاءات السياسية في إسرائيل التي لا تكون متشابكةً بخيوطٍ رفيعةٍ أو بحبالٍ سميكة، ومفتولة تمامًا، مع الماضي المحرقي. وهذا الماضي، على عكس جميع الأزمان الماضية الأخرى، ليس ماضيًا يبتعد، وإنما هو ماضٍ يقترب منا طوال الوقت. إنه ماضٍ أصبح جزءًا لا يتجزأ من الحاضر الإشكالي لدينا جميعًا.

كما أنَّ إسرائيل تحوَّلت إلى متحدثة باسم الموتى، دولة تتحدث باسم كل أولئك غير الموجودين، أكثر مما تتحدث باسم كل أولئك الموجودين. وإذا كان هذا كلّه لا يكفي، فإنَّ الحرب تحوَّلت من ظاهرة شاذة عن القاعدة إلى القاعدة نفسها. ويمكن القول، ليس بتبسيط أو على محمل الاستعارة، إنَّ الإسرائيلي يفهم فقط... القوة. هذه المقولة بدأت كاستعلاءٍ إسرائيليٍّ إزاء عجز العرب عن التغلّب عليها

إنَّ نتيجة ذلك كلّه هي أنَّ إسرائيل اليوم أصبحت مجتمعًا أقل استقلالية مما كانت عليه لحظة قيامها، وهي دولة محرقة أكثر مما كانت عليه بعد ثلاث سنوات من التحرير وفتح أبواب مصانع الموت التي أقامها النازيون وأعوانهم. وقليلة هي الادعاءات السياسية في إسرائيل التي لا تكون متشابكةً بخيوطٍ رفيعةٍ أو بحبالٍ سميكة، ومفتولة تمامًا، مع الماضي المحرقي.

في ميدان المعركة، واستمرت كتبرير لأعمال كثيرة جدًا ومفاهيم سياسية لا يمكن تبريرها في عالم متمدّن. كل دولة بحاجة إلى القوة بقدر معقول. وكل دولة تحتاج إلى سياسة ونفسية لجم القوة إلى جانب القوة. لكن إسرائيل ليس لديها أي بديل من القوة وليست لديها أي فكرة وأي رغبة سوى إعطاء القوة للتحدث و«دعوا الجيش ينتصر». وفي نهاية المطاف حدث لها ما يحدث مع كل عنيفي العالم وزعرانه: حولت الكآبة إلى نظرية ومفهوم «ونحن لا نفهم، بأنفسنا، أي شيء غير لغة القوة. بين الرجل وزوجته، بين الإنسان وصديقه، بين الدولة ومواطنيها، وبين القادة وزملائهم. إنَّ الدولة التي تحيا على سيفها، التي تسجد للموتى، مآلها، كما يتبين، أنْ تحيا في حالة طوارئ دائمة، وذلك لأنَّ الجميع نازيون، ألمان، عرب، الجميع يكرهوننا، والعالم أصلًا كان يكرهنا دائمًا».

إنَّ الكتاب، في معظمه، هو عبارةٌ عن حالاتٍ متّصلةٍ ومتداخلةٍ من محاسبة النفس والبوح الذاتي، وفي سياق ذلك فإنَّ الكاتب يُقرّ بأنه، من جملة أُمورٍ أُخرى، لم يفكر بتاتًا بمساهمته في المسؤولية عن معاناة الفلسطينيّين، ولم ينتبه إلى ما وصفه الباحث في تاريخ الصهيونية يغئال عيلام بـ «الترانسفير بنظرةٍ رجعيةٍ إلى الوراء؟»، ويخصّص حيّزًا كبيرًا للحديث عن قضية اللاجئين الفلسطينيّين وعن ضرورة اعتراف إسرائيل بأنَّ المسؤولية عنها تقع على عاتقها أيضًا تمهيدًا لإيجاد حل لها، لكن ليس على أساس «حق العودة».

وبقدر ما إنَّ الكاتب يبدو متميزًا في التشخيص العميق، فإنه يتحلّى كذلك بجرأةٍ في الاستنتاج.

مهما تكن استنتاجاته، فإنَّ أهمها يبقى ما يلي:

- أولًا: إنَّ استمرار تعريف إسرائيل بأنها دولة يهودية ينطوي على موقف مشحون بامتياز، ومن شأنه أنْ يؤدّي إلى نهايتها، ويستحيل أنْ يتعايش تحت سقف واحد مع تعريفها بأنها ديمقراطية، وقد حان الوقت لتحويلها إلى دولة جميع يهودها وجميع مواطنيها، على أنْ تقرر الأغلبية مضامينها وطابعها.
- ثانيًا: إنَّ إسرائيل ملزمة بالانفصال عن تعريفات نيرنبرغ، التي اعتبرت كل من اختلطت بدمه قطرة دم يهودية واحدة من جدّ أو جدّة، وحتى جيل رابع، يهوديًا، وكذلك الانفصال عن تعريفات قانون العودة وممارساتها التطبيقية التي تفرض التهوّد طبقًا للمنهج الأرثوذكسي الأكثر تشدّدًا؛
- ثالثًا: في نهاية المطاف فإنَّ العناصر الخاصة باتّفاق السلام مع الشعب الفلسطيني باتت واضحة منذ وقت طويل، لكن طالما بقي كلا الطرفين يتهم أحدهما الآخر بالظلم الذي تعرَّض له في الماضي، فلن يتقدَّما إلى الأمام. ولأنَّ إسرائيل أحالت دور النازيّين إلى الفلسطينيّين، فإنَّ أي حديث معهم يُعدّ مستحيلًا. ويجب أن لا يكف المرء فقط عن النظر إلى الفلسطينيّين على أنَّهم نازيّون، بل يجب أيضًا الاعتراف بأنَّ اليهود الذين كثيرًا ما كان يتم تشريدهم في السابق يشكّلون هم بالذات سببًا لتشريد الفلسطينيّين. من ناحيةٍ أُخرى، يتعيّن على الإسرائيليّين ألاَّ ينسوا المحرقة، ولكن ينبغي لهم أنْ يتعلموا من ذلك أنَّ ضرورة عدم تكرار ما حدث يجب ألاَّ تنطبق على اليهود وحدهم، بل على الشعوب كافة؛
- رابعًا: يجب أنْ يصبح الشعب اليهودي ودولته الإسرائيلية جزءًا عضويًا من البشرية في العالم أجمع، لا مخلوقاً وجوديًا، مستقلًا، مميزًا ومنفصلًا لا ينتمي إلى التاريخ.

من المهم بمكان أنْ نشير إلى الفصل الخاص، الذي يحمل عنوان «النظرية العرقية اليهودية والنيو يهود»، إذ إنه يكشف عناصر الفكر المتوحش، الذي يستحكم في منبت رؤوس غلاة المستوطنين المتطرفين الكولون في المناطق الفلسطينية المحتلّة، منوهًا بأنَّ ثمة

كثيرين لا يتورَّعون عن الحديث عن الترانسفير من (بأمر) التوراة، وعن فريضة الحرب واحتلال البلد «بشكلٍ حقيقي». وثمة «أشخاص غير قلائل من بيننا» يتوقون إلى فريضة «جينوسايد بأمر التوراة»، على غرار الأمر بإبادة شعوب البلد الأصلانية («وضربتهم فإنك تحرمهم»، سفر تثنية، الإصحاح ٧، الآية ٢)، والأمر بإبادة سكان أريحا (سفر يشوع، الإصحاح ٦، الآية ١٧). وبناء على ذلك، فإنه يؤكّد أنَّ هذا الفكر يؤدّي إلى الوقوع في قبضة فخّ واضح، فمن جهة هناك النصوص المقدَّسة التي أُنزلت من الراعي الأعلى إلى شعبه المختار، وليس ثمة من يقدر على إلغائها. والإيمان، كما هو معلوم، ليس مادةً صالحةً للتسويات والصفقات. وفي المقابل، لا مهرب في جهةٍ أُخرى من التساؤل التالي: كيف يمكن مقارعة العالم بشأن المعتقدات القومية الداعية إلى الإبادة، وبشأن صعود وتنامي القوى السلفية المتعصبة التي تحيا بقوة الفرائض الداخلية التي تلزمها، من دون معالجة نصوصٍ مماثلةٍ لدى الإسرائيليّين أنفسهم؟

٣- هل تكفي الكلمات؟

ختامًا، لا بدّ من الإشارة إلى أنني حدّدت لهذه المقالة أن تقف عند سقف النطق بكلماتٍ أراها ملائمةً ولائقةً جدًا في تشخيص الواقع الناجم عن النكبة والمحرقة، وهو السقف الذي غلب أيضًا على مؤلِّفين إسرائيليّين خاضا في هذا الموضوع من زاويتيهما، وربما شكّلا تعبيرًا عن مدى تحوّل صراع المواضي إلى هاجسٍ يؤرق وعي صاحبيهما، فضلًا عما يحيلان إليه من حالةٍ عبثيةٍ أشبه بالحالة في مسرحية صموئيل بيكيت «في انتظار غودو»، وبفحواها المجازي القائل إنه ليس ثمة شيء يمكن عمله إزاء الواقع المستحكم ربما باستثناء تطويعه بواسطة اللغة؛ من خلال قوانينها واستعاراتها.

ولئن كان تأثير مثل هذه الكتابة على إدراك الواقع تأثيراً كبيراً للغاية، وأساسًا إلى ناحية تحديد (من الحدّة) السؤال: «إلى أين نحن ذاهبون»؟ فإنَّ المسألة الأعمق تبقى كامنةً في الخوض في السؤال الذي لا يقل أهميةً، وهو: «ماذا نحن فاعلون؟»، لا سيما أنَّ انقلاب الأدوار والمصائر ليس من صنع اللغة أو الكلمات وحدها، مهما تكن حادّةً وواضحةً وجارحةً في تعرية خشونة الواقع الذي تصفه.

كذلك يجدر بنا التنبّه إلى أنَّ كيفية التعاطي مع المحرقة النازية من شأنها أنْ تدل بصورةٍ مباشرةٍ على كيفية التعامل مع النكبة الفلسطينية وكل ما ترتب عليها من أهوالٍ إنسانيةٍ وسياسية، كما حاولنا تبيان ذلك من خلال قراءتنا عمل سوبول المسرحي وكتاب بورغ البوحي. وفي نهاية المطاف يبقى السؤال الحاسم: ما هو السلوك السياسي الذي ينبغي استشفافه من ذلك؟

الهوامش

١ نوّهت المجلّة بأنَّ هذا الحديث كان بمثابة أول لقاء مباشر بين محمود درويش والقارئ العبري. وقد ظهر في نصّه الأصلي، باللغة العبرية، في أسبوعية «زو هديرخ» (هذه الطريق) الشيوعية، عدد ١٩٦٩/١١/١٩.

٢ محمود درويش في حديث صحافي أدلى به إلى يوسف الغازي. مصدر سبق ذكره.

٣ حنه ييلونكه، بعيد عن السكّة: الشرقيون والمحرقة، تل أبيب وبئر السبع: يديعوت أحرونوت ومعهد بن غوريون لدراسة إسرائيل والصهيونية، جامعة بن غوريون في النقب، ٢٠٠٨.

٤ عزمي بشارة، «دوافع إسرائيل إلى الاعتراف بها دولةً يهودية»، مجلة الدراسات الفلسطينية، مجلد ١٩، عدد ٧٣، شتاء ٢٠٠٨، ٥-٢٣، ٥-٦. المقالة متوافرة على الرابط التالي http://www.palestine-studies.org/files/pdf/mdf/9897.pdf. (زيارة أخيرة يوم ٩ حزيران ٢٠١١).

٥ باراك أوباما، «خطاب باراك أوباما في مصر» (٤ حزيران ٢٠٠٩)، متوافر على الرابط (موقع الجزيرة الإخباري) التالي:

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/33CCD867-CC83-4065-B0AB-4D9F762E9C25.htm.

٦ بنيامين نتنياهو، «نص الخطاب الذي ألقاه رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو في مركز بيغن- السادات للدراسات التابع لجامعة بار إيلان»، متوافر في موقع ديوان رئيس الحكومة على الرابط التالي:

http://www.pmo.gov.il/PMOAr/Archive/speeches/2009/06/speechbarilan140609.htm

٧ موشيه آرنس، «يجب عدم التنازل لأوباما»، هآرتس ٢٠٠٩/٦/٣٠.

٨ الخطاب متوافر باللغة العربية على موقع الكنيست في الرابط التالي:

http://www.knesset.gov.il/description/heb/doc/speech_bush_2008.pdf

9 Amos Elon, "Israelis and Palestinians: What Went Wrong?" The New York Review of Books, Dec. 9, 2002

١٠ صدرت في تلك السنة عن منشورات مركز أوغاريت للنشر والترجمة في رام الله - ٢٠٠٠.

١١ إصدار مركز مدار- المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، في رام الله - ٢٠١٠.

١٢ يهلي سوبول، «إبدا ع، احتلال، محرقة، تمرّد، وأبوية»، هعير (تل أبيب)، ٢٧ آذار ٢٠١٠.

١٣ يهلي سوبول، «إبدا ع، احتلال، محرقة، تمرّد، وأبوية»، هعير (تل أبيب)، ٢٧ آذار ٢٠١٠.